

أيا صوفيا للأستاذ علي الطنطاوي

كنا في «أوتيل مكة المكرمة» ، ذلك القصر الفخم ، الذي كان للشريف عدنان حى منيماً ، وحصناً حصيناً ، بهاب الجبارة الدنوت من بابه ، ونخشى الطير التحليق في سمانه ، ويتجنب الناس النظر اليه إلا نظراً الخائف الحذر ، لأنهم يملكون أن الكلمة متى خرجت من فم صاحبه كانت كسهم القضاة ، من أصابت أصدمت ، وأنه ليس بين أحدهم وبين أن يقتل أو يذفن حياً في جب القصر المظلم ، أو تنهب أمواله ، أو تحرق دوره ... إلا أن يشئ به إلى الشريف واش ، أو تصيبه عرضاً نقمة من تقامه !

وكنا في الردهة الكبرى التي بناها فأجد بنيانها ، وزخرفها فبالغ في زخرفها ، حتى كانت تحفة من التحف ، وآية من آيات العمران ، نوجب من تصاريق القدر ، وأحداث الزمان : كيف ذهب الملك ، وانذر السلطان ، وغدا الشريف الجبار ، الذي كان يتبختر في ثياب الوشي ، وأردية الديباج ، ونمشى

طابع التناقض وضيق الأفق ، وهي في روحها واتجاهها ، أشد طيناً من البلشفية والفاشية ، وأشد إذكاء للشهوات والأحقاد الجنسية والطائفية ، وهي أوهام أذهاب ضيقة متمصبة ، لا تؤمن بغير القوة والعنف ؛ وإنما يسبغ العنف عليها طابع النجاح . ومن الطبيعي أن تمت كل صنوف الحرية ونحشاها . والصحافة الحرة من أخطر القوى على نظم الطغمان

ولنلاحظ أخيراً أن محنة التفكير الألماني لا تقف عند مصرع الصحافة ، بل هي أشد أترأ وأوسع مدى ، فهي تشمل كل صنوف التفكير والآداب والعلوم والفنون ؛ وهذه كلها تخضع اليوم لنفس الاغلال والقوى ، وتمزقها وتشوهها نفس الأهواء والشهوات الهدامة ؛ وهي كلها تسير في ظل الاشتراكية الوطنية الى نفس المصير المحزن الذي تنحدر اليه جميع القوى الروحية والفكرية

في ألمانيا

محمد عبد الله عنانه
الحامى

أمامه العبيد بالسيوف ، والخدم بالمجامر ، ويسير وراءه الوجهاء والأعيان ... كيف غدا بمد هذا الجمال الناضر ، عظماً فخراً ، في حفرة مقفرة ، وكيف استبدل بالقصر الكبير ، هذا القبر الحقيق ، وكيف ذهب المال والولد ، والخدم والعبيد ، والحجاب والأعوان ، والأعداء والأخوان ، ومات الحب والبغض ، والخوف والرجاء ... حتى لكأنما لم يمر على الدنيا عدنان ، وكأنما لم يكن يوماً سيد مكة وجبارها ، وكيف ورثنا القصر أياماً وليالي نطوء مطمئين ، وننام فيه آمنين ، ونأمر فيه مطاعين ، لاندكر صاحبه وبانيه ، ولا نقيم له وزناً ، ولا نحسب له حساباً !

كنا جالسين مع اخواننا رجال الوفد السوري ، نتحدث أن لابقاء للانسان . وأن لا يخلو في الدنيا ، وأن الأيام دول ، والدمر دولاب ، فكلم من عزيز قد ذل ، ومن ذليل قد عز ، ومن ملوك كانوا أعز من النجم ، وأمنع من السحاب ، ضاعوا وضاعت ذكراهم ، فلا يفرن امرؤ بالدنيا :

فما الدنيا بياقصة لحى وما حى على الدنيا يباق
ولا يدخرون وسماً في كسب الذكر للدنيا والأجر للأخرة ،
فما الحياة إلا حياة التاريخ ، وحياة الجنة ...

وكننت لا أنى أسأل عن «الرسالة» ، وألح على مدير الأوتيل وهو من المشتركين فيها ، أن يأتيني بالأعداد الأخيرة منها ، وقد كنت في دمشق اذا تأخرت «الرسالة» يوماً قلقاً من تأخرها ، واشتد شوقى اليها ، فكيف وقد مرّت أربعة أعداد لم أرها ؟ صدرت ونحن على هامش الحياة ، من وراء حدود العالم ، نسير في الصحراء سبعة عشر يوماً من دمشق الى المدينة ، لم نر فيها إلا ثلاث قرى ، ما أقمنا من دونها بشراً ولا شجراً ، ولا وحشاً ولا طائراً ، وما أبصرنا إلا سلاسل الجبال ، وتلال الرمل التي تتعاقب لا حد لها ، فتاة متموجة ، كأنها قد مرّت عليها يد نقاش صنّاع ، سبعة عشر يوماً ، ملأت فصلاً طويلاً من سفر حياتي ، بأعمق الشهور ، وأشد المواطف

فلما جاءني خادم الأوتيل بأعداد الرسالة ، أقبلت أصفحها وأقرأ من كل مقالة عنوانها ، فرأيت منها عنوان مقالة ، ما إن قرأتها حتى سقطت الرسالة من يدي وعمرتني رجفة وأحسست أن قد ديرني

ختمه ، وكم ألقى فيها من درس ، وكم ذكر فيها الله ، وكم أقيمت فيها الصلاة !

أي صوفيا التي تشهد كل حجرة فيها ، وتشهد أرضها وسماؤها ، وتشهد قبتها المشمخة ، وتشهد مآذنها السامقة ، وتشهد الناس ، ويشهد الله وملائكته ، أنها بيت من بيوت الله ، وحسن من حصون التوحيد ، ودار من دور العبادة . . .

أي صوفيا . . . تعود للجبب والطاغوت ، وتحمل الصور والأصنام ، ويحسرها الإسلام والشرق ، ليربحها الكفر والغرب ؟ لقد أريق حول أي صوفيا دماء زكية ، وزهقت في سبيل أي صوفيا أرواح طاهرة ، من لدن معاوية إلى عهد الفاتح ، إلى عهد عبد الحميد . . . أفراحت الدماء هدراً وذبحت النفوس ضياعاً ، وعادت أي صوفيا بعد سبع وثمانين وأربعمائة سنة وكأنها لم يذكر فيها الله ، ولم يتل فيها القرآن ، ولم تقم فيها الأئمة ، ولم تنجاوب مآذنها بالأذان ؟

لقد بنى المسلمون هذا المجد على جماجمهم ، وسقوه بدمائهم ، وحموه بسيوفهم ، ثم وقفوه على الإسلام ، أفيأتي في ذيل الزمان ، من يبيت بالوقف ، ويهزأ بالسماء ، ويلعب بالجحيم ، ثم لا يردعه رادع ، ولا يفظه واعظ ؟

ومن هم الأتراك لولا الإسلام ؟ على أيّ حسب يتكلمون ، وبأي نسب يفخرون ، وبأي ماض يمتزّون ، وبأي مجد يباهون ؟ أم مجرد رعاة البقر في تركستان ، أم مجرد أرطغرل بك ، وقد جاء من مشرق الشمس بدويًا جافياً فقيراً لا يملك إلا أعنة ركائبه ، وطنب خيامه ، يفتش الغبراء ، ويلتحف السماء ، فصار أحفاده بالإسلام سادة القارات الثلاث ؟ أفرايت من ينطح برأسه الصخر ، ويشرب بفيه البحر ، ذاك هو التركي حين ينكر الإسلام ، ويسمى لا يذانه . إنه لا يحطم الصخر ، ولا يجفف البحر ، ولكن يمشي على رأسه إلى القبر ، وإن الإسلام إلا يكن بالترك يكن بنيرهم ، ولكن الترك إلا يكونوا بالإسلام لا يكونوا والله بغيره أبداً . . .

وعدنا نعتبر ونتحدث أن لا بقاء للإنسان ، وأن لا خلود في الدنيا ، وأن الأيام دول ، والذهب دولاب ، فكم من عزيز قدذل ، وكم ذليل قد عز ، وكم من ملوك « ورؤساء جمهوريات » كانوا أعز من النجم ، وأمنع من السحاب ، ضاعوا وضاعت ذكراهم وأن « الشريف عدنان » مهما يكن جباراً قوياً ، فإنه سيصبح

خبر هائل تصدع لهوله القلوب ، قلوب المؤمنين حزناً وألماً ، وتندى له الجباه حياءً وخجلاً ، وتكلى عن وصفه الألسنة دهشة وتفظلاً

ذلك أن الجمهورية التركية ، لم يشف غيظ قلوبها ، كل ما صنفته بالإسلام ، وما أنزلته بأهلها ، فعمدت إلى بيت من بيوت الله ، تقام فيه شائر الله ، فجعلته بيتاً للأصنام ، ومثابة للوثنية ، أمانت فيه التوحيد ، وأحيت فيه الشرك ، وطمست منه آي القرآن ، وأظهرت فيه الصور والأوثان ، لم تضق بها الأرض حتى ما نجد مكاناً لتحتفها هذا إلا المسجد الجامع ، ولكن النفوس الملهدة ضاقت بهذا المسجد ، وأحسن أصحابها كأن هذه المآذن في عيونهم ، وكأن هذه القبة على ظهورهم ، وعشت أبصارهم من نور الله ، فأرادوا ليطفئوه بأفواههم ، ويمنموا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، فمطلت الصلاة في أي صوفيا فلا تقام فيها بعد اليوم — وسكت المؤذن فلا يدعو في مآذنها إلى الله — ولا يصعد بالتهليل والتكبير ، ونأى عنها المؤمنون فلا يدخلونها إلا مستعبرين باكين ، يندبون فيها مجد الإسلام ، وعظمة الخلافة ، وجلالة السلطان ، وذل فيها المسلمون وصاروا غرباء عنها وهم أصحابها وأهلها ، وعز فيها المشركون ، وشعروا أن أي صوفيا قد ختمت فيها صفحة الإسلام ، باسم هذا . . . « أنا تورك » كما فتحت باسم « محمد الفاتح » !

أي صوفيا التي صيغ في مآذنها خمسين وثلاثمائة واثنين وسبعين وثمانمائة (٨٧٢٣٥٠) ألف مرة : حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر . . . لا إله إلا الله ، فاصطف فيها المسلمون خاشعة أبصارهم مؤمنة قلوبهم ، ساكنة جوارحهم ، قد وضعوا الدنيا تحت أقدامهم ، ودبر آذانهم ، وأقبلوا على الله بخشوع وإخلاص ، فجزام بما خشعوا وأخلصوا ، قلوباً استنارت بالإيمان ، وعمرت باليقين ، وكان القلب منها وهو يخفق بين جوانح صاحبه ، أكبر من الأرض وهي تجري في ملكوت الله . . . فلكوا بهذه القلوب الأرض ، وفتحوا بها العالم !

أي صوفيا التي بات فيها المسلمون سبعين وأربعمائة وأربعاً وسبعين ومائة ألف (١٧٤٤٧٠) ليلة ، ولهم في جوفها دوى بالتسييح والتكبير والتهليل كدوى النحل ، وما في أرضها شبر لم يكن موطى قدم مصل ، أو مجلس قارى ، أو مقام ذاكر ، أو مقعد مدرس أو سامع ، وليس يحصى إلا الله ، كم ختم فيها من